محمد

أنشودة البحر

قصة بقلم
مبارك ربيع

محمد ... يا محمد ... ويلي عليك يا محمد... يا محمد .

يعلو النداء في الظلام . يخفت النداء في الظلام . تختلط الاصوات ، والاضواء المشعة تهتك حرمة الليل البهيج وهدير الموج المتلاطم على الصخور

محمد ... يا محمد ... يا محمد ...

يعلو يخفت النداء ليعلو ويخفت .

* * *

نفاقا يعشقونك في حرّ الصيف يا بحري يا بحر . رعدة القرّ في حشو حشو الضلوع تهيج شوقي لحضنك الدافيء . أقاوم الاثارة والشوق . أمد المتعة يجب ان يطول .. تطول الرعدة في الضلوع في أخمص القدم ، يجب أن تطول ليتأتى لقاء الاحضان سكرة غيبوبة عميقة . أم تستعجلني يا بحري ؟ رعدة القرّ من أخمص أخمص القدم ، من ظفر القدم الى شعرة البطن والرأس تهزّ الاسنان ، تحرّك جلدة الجسم الضعيف كله ، تصدر من الاحشاء والحلق أصواتا مني ولا أفهمها رغم كراهيتي للصوت والكلام المسموع . ماذا يقول صوتي ؟ لا أدري. الصوت غير مألوف . لغة القرّ لا ارادية غريبة المتعة ، وبريئة كغوغاء الوليد . أنا وليدك يا بحري . أم تستعجلني تستعجل لحظة اللقاء ؟ دعني أقاوم رغبتي ورغبتك لتطول الرعدة ، يطول الشوق واللهفة ، لتكون لحظة اللقاء غيبوبة وسكرا عميقا .

يداي مصلوبتان الى صدري ، احداهما تترك دفء الابط لتمسك الفكّ المقرور المهزوز لتخرس الآهات والآحات الغريبة الصادرة عن حشو الضلوع الراقص دون جدوى ... الفكّ يضحك يقهقه للقرّ وهدير الموج ... ترتفع من حشو الضلوع رغما عني قهقهة فاضحة ممتعة طويلة . جمع احدى اليدين يدفع جمع الاخرى في الفوهة المقهقهة الفاضحة حتى لا تسمع الا منك ومني ، وأشرق ، أكاد أختنق. المهم ألا تسمعني الاصوات اللاهثة تهتك حرمة الصمت البهيم ، توقعه امواجي وأمواجك .

محمد ... يا خيي محمد ... ويلي عليك يا محمد ... يا محمد جاوبني . ضوء كاشف فضاح يتردد فوق قمة صخرتي . لا بد لراسي أن يستند الى السوراء حتى لا يرسم ظلا هاديا للاصوات اللاهثة والاضواء . الآن تزحزح موقعي قليلا وأظافر رجلي تنعم بدفئك يا بحر . قدماي الى ما فوق الكوعين قليلا ، الى منتصف الساقين ، الى ما يقرب من الركبتين قليلا تنعم بدفء غطائك كما كانت تنعم بدفء الغطاء أيام القر والطفولة . عندما كانت ثماني أقدام أو عشر تنحشر في شبه دائرة تحت الغطاء الصوفي تنصت بشغف الى حكاية عبد الله البرّي وعبد الله البحري يرويها الوالد أو الوالدة. من يعشق الآن حكايات عاشقك البري يخطو في أعماقك عاريا يقوده ابنك البحري ؟

ـ أغمض عينيك يا أخي .

ويتساءل البرّي متعجبا :

ـ ولماذا يا أخي عبد الله البحري ؟

ـ قلت لك أغمض .. ولا تفتحهما الا بأمري .

ـ وكيف نسير مغمضين ؟

ـ هات يدك ولا عليك .

ويظل عبد الله البرّي يخطو متمسكا بنصيحة صاحبه ويده . أصوات مغرية مناديه تصله من هنا وهناك لا يتفهمها ... منها آهات وقهقهات وآحات .. منها ما يشبه الشجار والتودد ... لكنه يظل مغمضا مطيعا ... وأخيرا تتباعد الاصوات ويأمره صاحبه بأن يفتح عينيه . يطوف عبد الله البري بعينيه فلا يرى الا كائنات مائية عادية حولهما ، يرنو الى صاحبه متسائلا متعجبا . فيرد عليه عبد الله البحري :

ـ يا أخي مررنا ببني يرذل ، قوم فجرة ظلمة لا ذمة لهم ولا ضمير، يتباهون بالظلم والفاحشة جهارا. من رآهم صار منهم . ويأمره من جديد بأن يغلق أذنيه فيطيع ، واذا هما يمران بقبيلة غريبة الخلقة ، أقوامها طالت ألسنتهم حتى حاذت ركابهم ، تعمل في حركة دائبة دخولا وخروجا من أحشائهم ... وعندما يتجاوزانها ويأمره صاحبه بأن يفتح أذنيه ، يجيبه قبل أن يتساءل :

ـ أولئك يا أخي قوم بني نكران ، نمامون يكذبون ويحلفون على الكذب ، حتى طالت ألسنتهم كما ترى . ومن سمعهم صار منهم .

وتظل أعاجيب عالم البحر تمرّ أمام عبد الله البرّي ، وصاحبه البحري ينصحه عند كل مشهد وقوم ، ويشرح له ، حتى شارفوا قوم عبد الله البحري، يرتع صبيتها في جنان زاهية مثمرة على أرض تربتها ورمالها زبرجد ، حصاها لؤلؤ ، صخورها ذهب وفضة، تحيطها هالة الفضل والفضيلة ، أسواقها عامرة بلا حراس ولا مراقبين . كل من أعجبته بضاعة أخذ منها كفايته ، ووضع نظيرها ما يراه مكافئا ، لا مدارس تتفنن الكذب ، ولا تجارة بالدين ، ولا سجون تعلم الجريمة ، لا حاكم ولا محكوم ، لا سيد ولا مسود ، مجتمع الفطرة على ايمان الفطرة . كلّ سيد نفسه ،

لا وسيلة ولا واسطة ، كل يؤمن بخالقه ويدعو له مباشرة في السر والعلن . واذ هما كذلك ، اذا بجماعة تتباكى نسوة ورجالا . تساءل عبد الله البري عن ذلك فأجاب رفيقه :

ـ هذه يا أخي أسرة رزقت مولودا !
ـ أو تبكون في الميلاد ؟!
ـ نعم . ونرقص عند الوفاة .
ـ عجبا أليس العكس أصوب واليق ؟
ـ يا أخي نبكي على المولود خشية اختباره في الحياة ، ونبتهج عند الوفاة لنجاحه فيه .

* * *

محمد ... يا خيي محمد .. يا ولدي محمد ... ويلي ويلي عليك يا محمد ...

اختلط النداء وتداخل بعضه في بعض . الاخت بحّ صوتها . انضمت الى النداء الزوجة ... والصهر وجملة معارف وأضواء كشافة فاضحة لبضع سيارات على الحافة توجه مصابيحها هنا وهناك متطوعة تحت الطلب . ولماذا يطلبونني يا بحري الحبيب ؟ لماذا يقطعون بأصواتهم لحظة وصال أشعر بها بدأت ، أريد لمقدماتها أن تطول كما تريد أنت بلا شك. لماذا يجهزون على رغبتنا لنسرع أو نتراجع . أنا محمدك البحري ، عبداللهك . أعرف متى أغمض ومتى أصمّ ، وأعرف طريقي الى مدينة السعادة والفضيلة وهالة الصدق والايمان حيث يبكي الناس للحياة ويبتهجون للموت .

تقترب الاصوات ، تتجمع وتفترق لتتجمع . وينادي صوت قد وجد الثياب . ها هي ملابسه . تعالوا . تتجمع الاصوات حوله . اذن غرق محمد . يتحدث من رآه يتحرك على الشاطىء عاريا متأبطا ثيابه. اذن غرق محمد ، يقول ذلك من علم انه حاول مرارا أن يغرق نفسه . مرة انتشل بقوة ومقاومة من هدير الموج . يقول ذلك صياد مسنّ . غرق ... لم يغرق . كيف يتحمل الصقيع والزمهرير والبحر عاريا ؟ غرق... لم يغرق . ولكنهم لا يفهمون . قلت لهم مرارا ونحن نشيد البناية : يا اخوتي زيدوا فيها طوابق أخرى ، ثلاثة أو أربعة . المهم أن يصبح الواقف على سطحها وسط المدينة يرى مركز البحر مركز الدنيا . قالوا : وانت مالك ؟ خدّام مثل الآخرين . مهندس ، مساعد مهندس ليكن . ولكنك مثل الآخرين مأمور ومأجور . يا اخوتي ماذا تفضلون : مشهدا مترامي الاطراف تبدو منه للناظر حافة الدنيا ومركزها ، أم رؤية مغمورة تقف حاجزا أمامها المداخن وأعمدة النور وشبكات الاسلاك متصالبة كقضبان السجن ؟ قالوا : فضولي واحمق وعنيد ولا يصلح لشيء . امراتي قالت نفس الشيء ، والاخ والوالدة والجيران ... كلهم متفقون . عينا الصفاء البحريتان المائيتان عند ابنتي نجوى وحدهما كانتا تشعان ببريق الفهم والطموح ، الى رؤية مركز الدنيا وحافتها وآفاق البحر الذي لا يمكن أن تجيء الا منه لتكون متلي هكذا .

قالت : يا بابا يجب أن ترتفع البناية ترتفع وترتفع يا بابا ترتفع ترتفع حتى نغيب في السحاب ونرى من على سطحها للامكة وقبة مولاي عبد القادر...

عيناها الصغيرتان المائيتان قاتلتان يا بحر . رنوت اليها بنهم ، رأيت امواجك تتلاطم في مآقيها بسكينة وهدوء . رأيت هالة الصدق والايمان والسعادة . كل ما قالت ان فكرتي تعجبها ولكنها لم تقل الكثير مما قرأته في عينيها وعرفت انني قرأته .

قلت للمحيطين : فهمتكم لا عليكم . سأعود منذ الغد لشغلي . أعتذر عن فضولي وأمارس وظيفتي في حدود اختصاصي لا أتعداه . غمزت للصغيرة نجواي (وهي فاهمة) واعتذرت في سري لرفيقي عبد الله البحري حتى لا يحسبني من بني يرذل أو بني نكران وغيرهم ... ناموا جميعا . عيونهم جافة ناشفة ، وظلت عيون أربعة مائية ريانة تنتظر اللحظة لتفلت . خرجت مع نجواي . قطعنا الطريق الى مركز المدينة بسرعة وخفة . حراس الورش نيام . هيكل البناية لا زال كله ثغرات ، قزما ثخين الردفين . نريد له ، نجواي وأنا ، أن يعلو ويتسق . صعدنا الى الطابق الذي أريد له أن يكون الاخير متقاعسا كسولا عن أن يحمل طبقات تؤدي الى مشهد للامكة وقبة مولاي عبد القادر . جعلت نجوى تتطلع الى البحر فلا تراه . أسفت . وشجعتني على فكرتي . كانوا قد بدأوا بتزفيت السطح علامة الانتهاء . انخرطنا توا في العمل. نكسر ونقتلع الزفت قشرة قشرة بالفأس والاظافر ... انتهينا منه . وبدأنا نضع اللبنات متراصة فوق بعضها. فضحنا الصبح الفاجر المالىء . قلت : برهنوا لي على خطئي . أقنعوني بوجهة نظركم وأنا أعوض كل ما سببت من خسارة حتى ولو أفنيت عمري في ذلك . قابلتني العيون الجافة الناشفة بصمت ولامبالاة . بعضهم كان ينظر اليّ نظرة الاسف كما كنت أنظر اليهم . أسفنا مشترك متبادل في اتجاهين متعاكسين . شعرت بهم يحبسونني في الغرفة بعيونهم تلك ، يفصلون بيني وبين نجواي .

محمد ... يا محمد ... بابا ... بابا ... بابا.

لا يا نجوى . يا بحر . لا أطيق الآن أن أسمع نجوى تنادي . واذا لم تعجل وتضمني اليك يا بحري تراجعت أمام ندائها ... لا بد أن أصمّ ، أدفن أصابعي في مسمعي . رعدة تشتد قهقهاتها في كياني المهتز الطرب وأنا أنحدر شيئا فشيئا بين أحضانك تحت غطائك الدافىء يا بحر ... الصوت الساحر ينبعث من أعماقك الآن حنونا وقورا : بابا ... بابا ... بابا ... وأمواجك تتلاطم بهدوء في عينين بحريتين قاتلتين .

الرباط